

ثالثا/ نظريات تعلم اللغات الأجنبية:

إنّ عملية تعلم اللغات الأجنبية عملية معقدة وليست أمرا هيّنا، ولا توجد طريقة محددة لتعليمها وتعلّمها و"لا يستطيع أحد أن يخبرك كيف تتعلم لغة أجنبية دون أن تحاول أنت محاولة حقيقة، فتعلم لغة ثانية عملية مركبة تتضمن عددا لا حصر له من المتغيرات"¹، وقد اهتم الباحثون والمختصون بتعليم اللغات اهتماما كبيرا، وحاولوا الكشف عن كنهها، ووضعوا نظريات "التعليم العامة ونظريات تعلم اللغة الأصلية الخاصة"²، وفي الحقيقة؛ فإنّ هذه النظريات عبارة عن "مجموعة محاولات يقوم بها العلماء والمختصون لدراسة ظاهرة التعلم التي تعتبر من أهم ظواهر حياتنا، إذ يقوم هؤلاء العلماء بتنظيم ما يتوصلون إليه من آراء حول حقائق التعلم وتبسيط هذه الحقائق وشرحها والتنبؤ بها"³، وتتطلق هذه النظريات في أساسها فكرة رئيسية مفادها: أنّ عملية التعلم واحدة بالنسبة لجميع أطفال العالم، وبالتالي فإنّه لا يوجد إشكال في تطبيقها على أية لغة من اللغات، فـ "مراحل السلوك اللغوي واحدة بالنسبة إلى جميع الأطفال ولا تختلف مهما كانت اللغات التي يكتسبونها من المحيط"⁴؛ فالطفل قادر على استخدام أكثر من لغة واحدة، ويستطيع أن يستعمل لغة غير لغته الأولى (الأم)، إلا أنّ هذا الاستعمال يبقى متفاوتا من حيث درجة الإتقان وسرعة الاكتساب، وسنعرض فيما يلي أهم النظريات الحديثة التي وضعها العلماء لتعليم اللغات الأجنبية، والتي كان لها منبرج حاسم في تطوير مناهج تعليم اللغات وتعلّمها.

¹: الحفيظ تحريشي، صعوبات تعليم اللغة الأجنبية وتعلّمها في الجامعات الجزائرية -جامعة بشار أنموذجا-، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، 18، جوان 2017، ص13.

²: نايف خرما، علي الحجاج، اللغات الأجنبية تعليمها وتعلّمها، ص76.

³: المرجع نفسه، ص52.

⁴: حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط5، 2003م ص123.

1/ نظرية التطابق (Matching Theory): ويرى أصحاب هذه النظرية "أنّ اكتساب اللغة الأولى، وتعلم اللغة الأجنبية عمليتان متطابقتان في الأساس، ولذلك فليس هناك أي تأثير للغة الأولى على تعلم اللغة الأجنبية"⁵؛ أي أنه لا يوجد فرق بين اكتساب الطفل للغة الأولى، وتعلمه للغة الأجنبية.

وإنّ هذا الرأي تنقصه الكثير من الدقة العلمية، لأنّه يساوي بين عمليتي الاكتساب والتعلم اللتان تختلفان كل الاختلاف، ويتجاهل العوامل النفسية، وتأثير السن؛ فتعلم الطفل يختلف عن تعلم الراشد، وقد أكدّ سكوفيل (scofille) على تأثير عامل السن في تعلم اللغة؛ حيث يقول: "إنّ أفضل وقت للتعلم يكون في السنوات الأولى من عمر الطفل، وبعد مضي اثنتي عشرة الأولى من عمره سيجد أي إنسان صعوبات في قابلية تعلم أو اكتساب لغة جديدة"⁶، كما أنّها تتجاهل الظروف الاجتماعية المحيطة بالمتعلم.

في حين تثبت دراسات أخرى أنّ هناك تأثيراً للغة الأولى على اللغة الأجنبية، وإنّ هذا التأثير يظهر بوضوح في الأخطاء التي يرتكبها المتعلم، والتي تتراوح بين 25% و50%، وهذا ما تتبأ به التحليل اللغوي المقارن بين اللغة الأولى واللغة الأجنبية؛ فكما يقول الجاحظ فإنّ: "كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها وتعرض عليها"⁷؛ وبالتالي فإنّ التأثير بين اللغتين موجود ولا يمكن إنكاره، ومن هنا يظهر أنّ الموقفان متناقضان؛ الأول ينفي أي تأثير للغة الأولى على اللغة الثانية، وهذا الموقف فيه كثير من التخبط والخلط بسبب خطأ في تنظيم تجاربه التي اعتمد عليها، وفي طريقة إجرائها، أمّا الموقف الثاني فيبدو أنّه الأقرب إلى الصواب، فقد

⁵: نايف خرما، علي الحجاج، اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، ص77.

⁶: خالد عبد العزيز الدامغ، السن الأنسب للبدء بتدريس اللغات الأجنبية في التعليم الحكومي، مجلة جامعة دمشق، ع1 و2 م27، 2011، ص765.

⁷: الجاحظ، كتاب الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ط)، 2003م، ص75.

أثبتت دراسات التحليل اللغوي المقارن وجود تأثير سلبي للغة الأولى في تعلم اللغة الأجنبية، ويظهر ذلك في الأخطاء التي يرتكبها متعلمو اللغات الأجنبية من الكبار، فمهما تَمَكَّن الفرد من اللغة الثانية؛ فإنّه لن يستطيع أن يؤديها كما يستعملها أهلها الأصليين⁸، فهما بلغت درجة إتقان المتعلم للغة الأجنبية (الثانية) إلاّ أنّها تبقى ناقصة وغير كاملة؛ لأنّها سبقت بلغة قبلها، وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله: "إنّ الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل، فلا تحصل إلاّ ناقصة ومخدوشة"⁹، ويمثل لذلك بقوله: "وانظر إذا تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصرا في اللسان العربي أبدا فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي، ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلّمه وعلمه"¹⁰، إلاّ أنّه يستثني من ذلك متعددي اللغات الذين يتعلمون هذه اللغات في آن واحد، ففي هذه الحالة يمكنهم امتلاك الملكة التامة في كلتا اللغتين.

2/ نظرية التباين (Theory of variation): ظهرت هذه النظرية كرد فعل على النظرية السابقة، وترى أنّ: "اكتساب اللغة الأجنبية يتحدّد بصورة كبيرة بفعل الأنماط الصوتية واللغوية الخاصة باللغة الأولى التي يتم تعلّمها (أي اللغة الأصلية)، فالتركيب والصيغ اللغوية التي تشبه تلك الموجودة في اللغة الأولى يتم تمثّلها وتعلّمها بسهولة، وتسمى هذه العملية بالنقل الايجابي * (Transfer positive). أما الصيغ والتركيب المختلفة، فإنّها تشكل عقبة في سبيل تعلم اللغة الثانية (الأجنبية)،

⁸: ينظر: كريمة شريف، الأسس الأنثروبولوجية والثقافية للغة -دراسة سوسيو أنثروبولوجية وتقويمية لتعليم اللغة الانجليزية في الطور المتوسط، ص33، 34.

⁹: ابن خلدون، المقدمة، تح: عبد الواحد الوافي، لجنة البيان العربي، بيروت، ط2، 1968م، ص1151.

¹⁰: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*: النقل الايجابي: عندما يساعد على تيسير العملية التعليمية، عندما يسهل على المتعلم تعلم اللغة(ب) بمساعدة اللغة (أ) أو العكس تعلم اللغة (ب) يعمق تعلم اللغة (أ).

وتسبب حدوث الأخطاء اللغوية نتيجة النقل السلبي* (Transfer négative) أو التداخل بين اللغتين (Intrérence)¹¹؛ أي أن متعلم اللغة الأجنبية لا ينطلق في تعلمه للغة من فراغ إنما ينقل شيئاً من لغته الأولى إلى اللغة الأجنبية، وهذا النقل يمكن أن يكون سلبياً أو إيجابياً، وقد فسّر كارل جيمس (Carl James) هذا النقل بين اللغتين قائلاً: "إنّ الذي يتعلم لغة أجنبية عندما يتكلم باللغة الأجنبية ينقل في ذهنه النص من لغته الأولى إلى اللغة الأجنبية قبل أن يبدأ في الكلام، ولا بدّ أن يترك هذا النقل أثره في اللغة الأجنبية نتيجة لقانون النقل السابق"¹²، ويرجع سبب هذا النقل إلى وجود نقاط تشابه واختلاف بين اللغتين، وعليها تتوقف صعوبة وسهولة نجاح المتعلم في تعلم اللغة الأجنبية، فكلما زاد الاختلاف بين اللغتين كلما زاد نسبة حدوث النقل السلبي بينهما، وازدادت صعوبات تعلم اللغة الأجنبية والعكس صحيح.

وقد سادت هذه النظرية في تعليم اللغات منذ ظهورها في القرن الماضي، وعُدّت منهاجاً في دراسة التداخل بين اللغات، والكشف عن سبل تعليمها وتعلمها، ويُعدّ لادو (Lado) أول من قام بوضع عملية تقابل بين اللغات؛ حيث قابل بين اللغة الانجليزية بوصفها اللغة المتعلمة والإسبانية بوصفها اللغة الأولى، وقد بنى نظريته هذه على مجموعة من الفرضيات، أهمّها:

* النقل السلبي: عندما يعوق أو يعرقل عملية التعلم، تعلم اللغة (أ) يعرقل تعلم اللغة (ب)، أو تعلم اللغة (ب) يحدث اضطراباً في تعلم اللغة (أ) (محمود محمد قدوم، محمد حسن السماعنة، الأنساق اللغوية والسياقات الثقافية في تعليم اللغة العربية، أعمال المؤتمر الدولي الأول لتعليم العربية، دار كنوز المعرفة، 2014، عمان، ص 17)¹¹: نايف خرما، علي الحجاج، اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، ص 77.

¹²: صلاح الدين حسين، التقابل اللغوي وأهميته في تعليم اللغة لغير متكلميها، مجلة معهد اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ع12، 1404هـ/ 1984م، ص111.

أ/ مفتاح السّهولة والصعوبة في تعلم اللغة الأجنبيّة يكمن في الموازنة بين اللغة الأولى واللغة الأجنبيّة، واستخراج أوجه التشابه والاختلاف بينهما¹³؛ ف"تلك العناصر التي تشابه لغة الدّراس الأصليّة تكون سهلة بالنّسبة له في حين تصعب عليه المجالات التي تختلف عما في لغته"¹⁴.

ب/ إنّ أكثر المواد فاعليّة في تعليم اللغات هي المواد التي تقوم على أساس من الدّراسة الوصفية العلميّة للغتين، للاستفادة منها في تعليل التداخل بين اللغتين من جهة، واستغلالها في التنبؤ بالصعوبات التي يمكن أن تواجه متعلمي هذه اللغة من جهة ثانية¹⁵؛ فالمعلم الذي يدرك أوجه التشابه والاختلاف بين اللغتين يكون أقدر على الكشف عن سبب المشكلات التي يواجهها متعلمو اللغات، ويحاول إيجاد حلول لتجنبها أو علاجها، وفي هذا الصّدّد يقول بوليتسر (Politzer) متحدّثاً عن دور المعلم: "حيث إنّّه يساعد في التنبؤ بمشكلات الدارسين والتركيز عليها خصوصاً عند تعلم اللغات التي لم تمر بتجارب كبيرة ومنتظمة في تدريسها"¹⁶ وهذا من شأنه أن يذللّ كثيراً من الصعوبات التي تواجه متعلمي اللغات الأجنبيّة، ويجنّبهم كثيراً من الأخطاء اللّغويّة.

¹³: ينظر: كريمة شريف، الأسس الأنثروبولوجية والثقافية للغة -دراسة سوسيو أنثروبولوجية وتقويمية لتعليم اللغة الانجليزية في الطور المتوسط، ص35.

¹⁴: محمود إسماعيل صيني، إسحاق محمد الأمين، التقابل اللغوي وتحليل الأخطاء، ص119.

¹⁵: ينظر: كريمة شريف، الأسس الأنثروبولوجية والثقافية للغة -دراسة سوسيو أنثروبولوجية وتقويمية لتعليم اللغة الانجليزية في الطور المتوسط، ص34.

¹⁶: محمود إسماعيل صيني، إسحاق محمد الأمين، التقابل اللغوي وتحليل الأخطاء، ص119.